

ابن هشام الأنصاري وآثاره

بقلم الشيخ يوسف عبد الرحمن الصنع
المدرس بكلية الشريعة بالجامعة

نسبه:

هو عبد الله أبو محمد جمال الدين. وفق عبارة ابن مالك:

واسما أتى وكنية وأخرن ذا أن سواه
واسم أبيه يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام
الأنصاري أرومة ومحتدا، المصري نشأة ومولدا.
وهذا النسب قد جاء في كتابي السيوطي (بغية الوعاة
وحسن المحاضرة) كما جاء في (شذرات الذهب) لأبي
الفلاح عبد الحميد بن العماد، وفي (البدر الطالع بمحاسن
من بعد القرن السابع) للعلامة الشوكاني، وفي (دائرة
المعارف الإسلامية).

وقد أثبتته الزميل المحقق الأستاذ محمد شريف الزئبق
في نشره حديثا أثرا هاما من آثار المترجم له صغير الحجم
وفير العلم ظل رهين الغربي من المكتبات دفين المنسى
من المخطوطات حتى أذن الله للأخ الشريف أن يبرزه في
ثوب قشيب وضاح الجبين ذلك هو (الجامع الصغير) الذي
ازدانت به المكتبات العربية وتسامع به عشاق تراث ابن
هشام فأقبلوا إليه يزفون، وإنها لمكرمة تذكر فتشكر لأبي
خالد؛ لأن فضيلة النشر في البقاع لا تقل عن فضيلة
الاختراع زاده الله توفيقا في إحياء المخطوطات من
ثمرات قرائح الراسخين في العلم.

ومن الأمانة العلمية في نسب ابن هشام أن نسجل ما
ذكره الإمام ابن حجر في كتابه (الدرر الكامنة في أعيان
المائة الثامنة) فقد جاء فيها أنه عبد الله بن يوسف بن
عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام
الأنصاري المصري.

فجعل جده الأدنى عبد الله وجد أبيه يوسف على حين
قد أجمع غيره على أن جده أحمد وجد والده عبد الله.

وإذا علمنا أن العلامة ابن حجر قد سبقهم في الترجمة لابن هشام ساغ لنا أن نقول إن الحق معه حيث ذكر النسب كاملاً ويكون غيره على حق إذا روعي الاختصار في السلسلة النسبية بحذف ما يدل عليه مثله وهو هنا (عبد الله بن يوسف) فلا منافاة إذن بين النسيبين. وبدهي أنه من سلالة الأنصار الذين أووا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعززوه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه فسماهم من أجل ذلك أنصاراً. والأنصار ينتمون إلى الأوس والخزرج من قبائل الأزد بن الغوث بن ثبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ أخي جرحم وحضرموت أبناء قحطان. وقد قرر بعض الشيوخ أن ابن هشام من الأوس ورأى آخرون أنه من الخزرج وهو الذي أيده العلامتان عبادة والأمير، وإلى الأخير أميل وأرجح.

مولده ووفاته:

ولد ابن هشام بالقاهرة يوم السبت الخامس من ذي القعدة في العام الثامن من القرن الثامن سنة ثمان وسبع مائة هجرية بإجماع الروايات. واختاره الله لجواره ليلة الجمعة الخامس من شهر ذي القعدة في العام الأول من العقد السابع في القرن الثامن (سنة 761هـ) سنة إحدى وستين وسبعمائة هجرية عن ثلاثة وخمسين عاماً لم تنقص ولم تزد فيما تضافرت عليه الروايات، ولم يشذ من بينها إلا ما ذكره صاحب (كشف الظنون) حاجي خليفة في غير موضع من كتابه أن وفاته كانت سنة اثنتين وستين وسبعمائة هجرية (762هـ). وأياً ما كان فلقد بورك له في عمره حيث أربت مؤلفاته وفيها البسيط والوجيز والوسيط على بضع وثلاثين من أمهات المراجع التي وهب الله لها ما وهب من قبول ورواج في شتى الآفاق. فإذا كان قد بلغ أشده واستوى في مستهل العقد الثالث من حياته المفعمة بالجد والعمل فيكون قد أتحف القراء في كل علم بكتاب وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً.

كشف اللثام عمن أطلق عليه (ابن هشام)

يتسامى إلى ابن هشام جماعة كثيرة وعتهم (بغية الوعاة) في طبقات اللغويين والنحاة اشتهر من بينهم تسعة المترجم له واسطة عقدهم غير منازع لما جبل عليه من مواهب وتوافر لديه من مناقب جعلته في علوم العربية عامة وفنون الأدب خاصة صاحب البحر المسجور والروض الممطور إلى ما تطامن له في اللغويات وبلغ الغاية فيه من الشواهد النحوية وتخريجها وفق القراءات السبعة وخطها بيمينه بأحرف من نور في كتاب مسطور هو بحق كما قال فيه الكرام الكاتبون كالشهاب الخفاجي في حاشيته، وابن خلدون في غير موضع من مقدمته.

قال الخفاجي:

مغنى اللبيب جنة أبوابها ثمانية

أما تراها وهي لا تسمع فيها لاغية

وقد أخذه من قول العلامة الأمير في شرحه على
(مغنى اللبيب)

ألا إنما مغنى اللبيب جليل به النحوي يحوي أمانيه

وما هو إلا جنة قد ألا تنظر الأبواب فيه ثمانية

وقال التاريخ المحقق بعد البيان المتدفق لابن خلدون:

ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم

بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه وقديما قيل:

إنما يقدر الكرام كريم ويقيم الرجال وزن الرجال

حقا لقد كان ابن هشام موسوعة مطبوعة في البحث

العميق والتحليل الدقيق ختمت به دولة المجتهدين في

النحو ومن جاء بعده من فحول العلماء أما شارح لكلامه أو

ناقل عنه وعن غيره شاهد له بطول الباع ورسوخ الأقدام

وليس نبوغه وقفا على النحو بل وصل إلى الأعماق في كل

ما يمت إليه من أدب ولغة وقراءات.

وكان من الفنون بحيث له في كل فن بالجميع

وكان الله تعالى آلاؤه وجلت نعمائه قد أدرج للغة
قرآنه وتوجيه بيانه من الراسخين في العلم الملهمين في
الفهم من يستوعب لغة الضاد أصولها وفروعها معنيا بها
موغلا فيها متوفرا على أجلها.
وإذا أردت من العلوم فأجلها منها مقيم الألسن
فكانت تلك الخصال بعض خلال ابن هشام الذي أنجبه
القرن الثامن ليكون صاحب العلم في ميادين العلوم
مستعينا بالصبر معتصما بالنهي شعاره تنطق به حكمته:
ومن يصطبر للعلم يظفر ومن يخطب الحسناء يصبر
ومن لم يذل النفس في يعيش دهرًا طويلًا أخا ذل
وإنها لنصيحة مجرب أخلق بكل طالب علم أن يأخذ
نفسه بها ليسير في درب ابن هشام فيصل بعون الله،
وفي مقال تال بيان عن بقية الأعلام ممن يطلق عليه ابن
هشام.